

ما أبعد ما بين هذه الجماعة التي حُشِرنا فيها حُشْرًا في فناء هذه الدار، وما بين تلك الأسرة التي كنت أعمل عندها وأجد في خدمتها حين تجلس إلى المائدة لذةً ومتاعاً يعدلان بل يربيان على ما كنت أجد من اللذة والمتاع حين أجلس إلى طعامي مع رفاقي من الخدم بعد أن يتفرق سادتنا عن مائدتهم!

أين أجد القدرة على أن أدفع يدي مع هذه الأيدي وأحرك فمي مع هذه الأفواه! إنما أنا جالسة بين هؤلاء النساء أنظر إليهن ضيقةً بهن، وأتلهى عن الجوع بهذا الخبز الرقيق المستدير الواسع أحطمه بين يدي وأصيب منه قليلاً بين حين وحين، وأمناً تصيب من الطعام في قصد واعتدال، قد حال الحزن والحياء بينها وبين إرضاء حاجتها إلى الغذاء، وأختي واجمة ساهمة كأنها في أرض غير هذه الأرض، وفي حياة غير هذه الحياة. ثم تفرغ الجفان ويتفرق النساء جماعات، ونهْمُ نحن أن ننتحي ناحية، ولكننا لا نكاد نبليغ من ذلك ما نريد حتى يدركنا نسوة ثلاث يجلسن حيث نجلس ويأبين إلا أن يأخذن معنا في الحديث، تقول إحداهن وكانت امرأة تختصم على وجهها أواخر الشباب وأوائل الشيخوخة، ويحتفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عذوبه مغرية وميل إلى الفكاهة ظاهر: ما رأيت كالיום نسوة يستغنين بالأعين والأذان عن الأيدي والأفواه وعن الألسنة والحواس والأجواف.

ها أنتن أولاء بيننا منذ أمس، وما سمعنا لكُنَّ صوتاً ولا عرفنا من أمركن شيئاً، وها أنتن أولاء تستدرن معنا حول الطعام فلا تكدن تمددن إليه يدًا ولا تكدن تصبن منه حظاً، كأنما يغذيكن النظر إلى الطاعمات وهن يلتقمن ويلتهمن ويزدردن، وكأنما يرضي حاجتك إلى الحديث الاستماع للمتحدثات! ثم أرسلت ضحكة سمعها من غير شك أبعد من في الدار مكاناً، وسمعها من غير شك من كان خارج الدار، وانتشر معها في الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء إلى المجون، حتى إذا فرغت من ضحكها وجرتِ الهواء إلى جوفها جرّاً هو أشبه بالشهيق المثير قالت: أهذا شأنكن بالقياس إلى كل ما تحتاج إليه النساء من لذة وراحة ورضاً؟ إنكن إذن لبائسات.

قالت هذا ثم التفتت إلى أمنا فألقت عليها نظرة قوية تريد أن تثيرها إلى الحديث وتكرهها على الجواب، ولكن أمنا لم تنطق بحرف ولم تعرف كيف تلقى هذا السيل المنهمر من اللفظ، وإنما انعقد لسانها انعقاداً، وظهر على وجهها اضطراب شديد، ولم تثبت عيناها لعيني هذه المرأة الجريئة اللعوب فغضتتهما، وأطرقت برأسها إلى الأرض كأنها الطفل الصغير يلح عليه الكبار في السؤال عن بعض أمره فيمنعه الحياء من أن يجيب.